

اللسانيات التداولية عند فان ديك: قراءة في كتابه النص والسياق

Pragmatic Linguistics in Van Dijk's Work: A Reading of His Book Text and Context

د. نكاع سعاد*

جامعة مستغانم (الجزائر)

souad.nekkaa@univ-mosta.dz

تاريخ النشر: 2025/06/01

تاريخ القبول: 2025/05/19

تاريخ الاستلام: 2025/03/08

ملخص:

إن حقيقة نشأة الدرس التداولي تنطلق من فكرة تغيير النظرة حول العالم، ذلك أن جل الدراسات خاصة اللغوية منها كانت تبحث في كيفية وصفنا لهذا العالم، في حين ومع ميلاد الفكر التداولي انتقلنا إلى ما وراء اللغة لنقف على الاستخدامات اللغوية التي نخدم أفكارنا وتعيننا على التغيير في هذا العالم. وفحوى البحث التداولي يتجلى في ربط النتائج اللغوية بمقاماتها لينتج لنا في الأخير قاعدة دراسة اللغة في الاستعمال.

تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف والكشف عن آراء فان ديك (Van dijk) الداعمة لقيام الفكر التداولي، خاصة إذا علمنا أن كتابات فان ديك وبالأخص كتابه –النص والسياق– قد كان من بين أهم المراجع الداعمة لقيام الدرس التداولي، وعليه نأتي هنا لمعالجة إشكالية محورية مفادها: ما هي أهم الأطر النظرية التي وقف عندها فان ديك والتي يمكن لنا أن نعتبرها مقوما من مقومات نشأة اللسانيات التداولية؟.

الكلمات المفتاحية: اللسانيات التداولية، النص والسياق، فان ديك.

Abstract:

The emergence of pragmatics stemmed from a paradigm shift in our understanding of the world. While most, particularly linguistic studies, focused on describing the world, the advent of pragmatic thought shifted attention beyond language to explore how language is used to shape our thoughts and influence the world around us. The core of pragmatics lies in linking linguistic utterances to their contexts, ultimately establishing the foundation for the study of language use.

This study aims to examine Van Dijk's contributions to the development of pragmatics, particularly his influential work, Text and Context. The central question is: What are the most significant theoretical frameworks identified by Van Dijk that can be considered as foundational elements in the emergence of pragmatics?

Keywords: Pragmatics, Text and Context, Van Dijk

1 . مقدّمة :

شكّلت فكرة أنّنا "نتكلم من أجل أن نغيّر في العالم" - والتي ظهرت في أواخر القرن العشرين - انفراجاً للدرس الألسني تبلور من خلاله اتّجاهين للدرس الألسني: تمثّل الاتجاه الأول الأوّل في اللسانيّة البنيويّة، في حين تأسّس الاتجاه الثاني على مفاهيم الوظيفيّة. والسائد المتعارف عليه أنّ الاتجاه الأوّل قد قام على مفاهيم تجريديّة تنظر للغة في بنيتها التّسقيّة معلنة ثورة ضدّ السياق والوظيفة التّواصلية، وفي الجهة المقابلة قد اتخذ الاتجاه الثاني شرعته ومنهاجه من مفهوم الاستعمال كركيزة أساسيّة لتحليل الظاهرة اللّغويّة واستعمالاتها، فكان التّواصل لبّ البحث الوظيفي.

لقد قامت التّداوليّة كاستجابة لتداعيات الاتجاه الثاني، ذلك أنّ أفكار وآراء هذا الاتجاه استلزم قيام علم قائم بذاته تختلف إجراءاته التحليليّة باختلاف مشارب ومناهل علمائه: كالفلاسفة والمناطق واللّسانيين وغيرهم، وهذا التّباين في النّشأة أدّى إلى تباين في مفاهيم واصطلاحات المنهج التّداولي؛ وعليه سنحاول من خلال هذه الورقة البحثيّة الإجابة عن الإشكاليّة الجوهرية: ما هي أهم المفاهيم والاصطلاحات التي ضمّنها كتاب "فان ديك" "النص والسياق" التي تبلور على أساسها التّفكير التّداولي عنده؟ ومفاد هذه الإشكاليّة السعي لتحقيق الأهداف الآتية:

- رصد أهم اصطلاحات ومفاهيم التّداوليّة عند "فان ديك".
 - تبيان أوجه الاختلاف بين أفكار "فان ديك" وغيره ممن خاضوا القول في هذا المجال.
 - ترسيخ فكرة تعدد مناهل نشأة التّداوليّة كان سبباً في إثراء هذا العلم.
- وحثّى نمكّن من الإجابة على هذه الإشكاليّة وتحقيق الأهداف المسطرة، جاءت منهجيّة البحث كالآتي:

1- الضبط الاصطلاحي والمفاهيمي للتّداوليّة.

2- أهم المفاهيم البنائيّة للفكر التّداولي.

3- اللّسانيات التّداوليّة عند "فان ديك".

2. الضبط الاصطلاحي والمفاهيمي للتّداوليّة:

يقول "فرانسواز أرمينكو" (Françoise Armingaud) في كتابه المقاربة التّداوليّة: "التّداوليّة ! درس جديد وغزير، إلّا أنّه لا يمتلك حدوداً واضحة. تقع التّداوليّة كأكثر الدّروس حيويّة، في مفترق طرق الأبحاث الفلسفيّة واللّسانيين. إلّا أنّها غير مألوفة حالياً"¹، ولذلك عدّها الكثير من العلماء ملتقى لمصادر أفكار وتأمّلات مختلفة يصعب حصرها. وفيما يلي سنعرض تعريف المصطلح.

التّداوليّة كمصطلح وافد من الثقافة الغربيّة؛ مصطلح شائع بين الدّارسين والباحثين بمسميّات عدّة في الدّراسات اللّغويّة العربيّة المعاصرة، وهو مصطلح يحمل في اللّغة الفرنسيّة معنيين أساسيين: (محسوس) و(ملائم للحقيقة). أمّا في اللّغة الإنجليزيّة: "فإنّ كلمة pragmatic تدلّ في الغالب على ما له علاقة بالأعمال والوقائع الحقيقيّة"²، وفقاً لذلك ندرك أنّ الاختلاف على مستوى المفهوم كائن حتّى في بيئته الأصليّة .

إنّ ما يمكن قوله في حق التّداوليّة كمفهوم هو المقالة الشهيرة لعبد العزيز بن عرفة مفادها "الدال العائم والمدلول المنزلق"؛ وهذا هو حال الجهاز المفاهيمي للتّداوليّة ككل، إذ يرجع أغلب الباحثين سبب هذا التّباين والتّداخل إلى اختلاف أصول التعريفات والمفاهيم الخاصّة بالفكر التّداولي.

تعتبر إشارات موريس (Morris) من أوائل المفاهيم والاصطلاحات التي صدحت بأفكار التّداوليّة، فهو يجعل التّداوليّة جزء من السيميائية، التي تعالج العلاقة بين العلامات، ومستعملي هذه العلامات، من هنا تحدّد مجال اشتغال التّداوليّة على خلاف غيرها من المناهج اللّسانية، فالاستعمال قد تجاوزته لسانيات سوسير ومن بعدها النظريات اللّسانية والدلائليّة لتهمته به التّداوليّة.

جاء تعريف آن ماري دير (Anne-Marie Diller) وفرنسواز ريكاني (Françoise Récanati) كأكثر التعاريف تفصيلاً فالتّداوليّة عندهما "دراسة استعمال اللّغة في الخطاب، شاهدة في ذلك على مقدّرتها الخطابية"³، يعني أنّ التّداوليّة لا يمكن أن تتوقف حدودها عند تحليل القول، وإمّا تتعداه بالنّظر إلى ظروف الاستعمال ومقامات التّخاطب. وقد فضّل فرانسيس جاك (Francis Jacques) ذلك أكثر على أنّها تدرس اللغة كظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعيّة.

وتجتمع كل تعريفات التّداوليّة في مجموع النّقاط التي أفردتها فيليب بلانشيه (Phillippe Blanchet)، وهي كالآتي:

- مجموع البحوث المنطقية واللّسانية التي قدّمت في دراسة استعمال اللّغة، ومطابقة التّعبيرات الرّمزية للسياق الوصفي الفعلي، والعلاقات بين المتخاطبين.

- دراسة استعمال اللّغة في الخطاب، والآثار التي تثبت ذلك.

- دراسة اللّغة بعدها ظاهرة تواصلية اجتماعيّة خطابية حجاجيّة⁴.

رغم الاختلاف والتّباين الظّاهر في التّعريفات الخاصّة بالحقل التّداولي ولكنّها تظهر في مجملها أنّها تنضوي تحت المفهوم الرئيسي الذي جاء به الفيلسوف موريس، وتتفق في ذلك على أنّ اللّغة ذات طابع اجتماعي تكتسب حيوتها وحياتها في ظلّ الاستعمال في وسط مجتمعه، تحدّد أطرها وقوانينها جملة القواعد التي اتفق عليها أفراد الجماعة الواحدة.

بهذا يظهر أنّ الحقل الأوسع في تعريف التّداوليّة، هو المرتبط بظروف النّشأة والخلفيّة الفكرية لها، ذلك أنّ التّداوليّة لم تُعرف -في الغالب- بمهايتها، بل بإجراءاتها وتفسيرها للخطاب، كأن تُعرف مثلاً بأنّها تقوم على التّفكير اللّغوي وما يتعلق بفعاليّة الخطاب في الواقع⁵. فهي بذلك تعتبر نقطة التقاء بين الفلسفة واللّسانيات.

3. أهم المفاهيم البنائية للفكر التّداولي:

أبان الفكر التّداولي عن جملة من المفاهيم التي كانت معيّنة عن فلسفة اللّغة واللّسانيات على حدّ سواء، وهي كما أفردتها فرنسواز أرمينكو:

1.3 مفهوم الفعل: مفاد هذا المفهوم أنّ اللغة ليست مجرد وصف للعالم وتمثيل له، وإنّما هي تخدم إنجاز الفعل. فغاية الكلام أن نفعل أشياء ليحصل عندنا التفاعل.

2.3 مفهوم السياق: السياق هو الإطار الذي يحيط بالكلام ويحدد معناه، حيث يشير إلى الوضعية الملموسة التي يتم فيها التعبير عن المقاصد، سواء من حيث المكان، الزمان، أو هوية المتحدثين وغيرهم من العناصر المؤثرة في عملية التواصل. إن فهم أي خطاب يعتمد بشكل أساسي على إدراك هذا السياق، إذ يوفر لنا المفاتيح اللازمة لتفسير المقاصد وتقييمها بشكل دقيق. تبرز أهمية السياق بشكل خاص عندما نفتقده، كما هو الحال عند تلقي رسالة منقولة عبر وسيط أو خارج سياقها الأصلي، يصبح المعنى غامضاً أو غير مكتمل. فبدون السياق، قد تفقد الكلمات قيمتها الحقيقية، ويصعب علينا الوصول إلى المقاصد.

3.3 مفهوم الإنجاز: يقصد بالإنجاز، تحقيق الفعل داخل السياق اللغوي، سواء من خلال الاستناد إلى قدرات المتكلمين؛ أي معرفتهم المسبقة لقواعد اللغة وطرق انبائها، أو عبر إدماج التمرس اللساني في إطار أوسع، يأخذ بعين الاعتبار القدرة التواصلية للمتخاطبين، والتي تتيح استخدام اللغة بفعالية وفهم أعمق ضمن مختلف المواقف التواصلية.

4. اللسانيات التداولية عند "فان ديك" من خلال كتابه "النص والسياق":

1.4 توصيف الكتاب:

تتجلى قيمة أعمال الباحث "فان ديك" في كونه من أوائل الباحثين الذين حاولوا أن يوحدوا النظرية اللسانية في اتجاه التداولية التي تجمع بين سائر ظواهر اللسان، وتخرج إلى المحيط السياقي وأفعال الكلام ولربما العمليات الذهنية وتفاعلها مع أحداث العالم الواقعي وعالم الإمكان. إنّ "فان ديك" ومن خلال تأليفه لكتابه (النص والسياق) عمل على تركيب كلي لسائر ظواهر الخطاب الدلالية والتداولية.

عمد "فان ديك" إلى تقسيم كتابه قسمين، خصّ الأول منهما بالبحث الدلالي، في حين غني القسم الثاني بمفاهيم وإجراءات الفكر التداولي، ومقصديته في ذلك تقريب المفاهيم وتوضيح التباين الحاصل بين العلمين، فقد أشار في المقدمة الأصلية في كتابه الموسوم أعلاه أنّه يستوجب على "القارئ أن يكون ملماً ببعض جوانب ومعاني الدراسة اللسانية، وله فكرة عن نظرية المجموعات، وصياغة النماذج، ومنطق الواجهة في شكله الزاهن الرمزي والصوري"⁶. ذلك أنّ الولوج إلى مجال التداولية يحتاج من الباحث تمرساً وخبرة، ويستلزم من القارئ سعة إطلاع وخبرة حتى يتمكن من فكّ شفرات الخطابات.

2.4 التفكير التداولي عند فان ديك:

إنّ القارئ لكتابات "فان ديك" يدرك بأنّ الرجل قد تجاوز النظرة الجزئية والبنوية للغة، فهو يبحث عمّا وراء اللغة إذ يقول: "إنّ النظرية اللسانية تهتمّ بأنساق اللغة الطبيعية أعني تراكيبها المتحققة أو الممكنة التحقق، وبتطورها التاريخي وبمختلف أنشطتها الثقافية ووظيفتها المجتمعية وأسسها المعرفية، وفي العادة إنّما تصاغ هذه الأنساق من حيث هي أنساق صياغة واضحة من قواعد متواضع عليها من شأنها أن تحدّد نوع السلوك اللغوي كما يظهر هو ذاته في استعمال العبارة الكلامية اللفظية في كل موقف ومقام تواصلية"⁷. فالنظرية اللسانية تهدف إلى فهم شامل للغة من جميع أبعادها:

بنيتها، تطورها، ارتباطها بالثقافة والمجتمع، ودورها في عملية التواصل. وهي تعتمد على قواعد واضحة لفهم الأنماط اللغوية وتحليل السلوك اللغوي الإنساني.

لا يخرج الباحث "فان ديك" عن أفكار مؤسس اللسانيات "سوسير" فيما يتعلق بالقوانين السائدة التي تحكم النظام اللغوي وتضمن له سلامته؛ تلك القوانين التي أقرتها الجماعة اللغوية وافقوا عليها، فهي مشتركة بين أفراد الجماعة اللسانية الواحدة ويعرفونها معرفة ضمنية، والتأليف الكلامي يخضع لقدرة كل فرد وكفاءته في الاستعمالات اللغوية بمعية علم النحو.

ووفقا للضرورة الحتمية التي فرضها الفكر التداولي فإنّ بنية اللغة لا تخضع لسلطة المستوى التركيبي والدلالي فقط، بل يتجاوز ذلك إلى المستوى التداولي وهنا نقف على قول "فان ديك" في ذلك حيث يقول: "وتدعي المسألة الأولى أنّ البناء النظري للعبارات على المستويين الصوري والدلالي ينبغي أن يكمل ويتمّ بالمستوى الثالث أعني بمستوى أفعال الكلام. وذلك أنّ كلّ عبارة متلفظ بها ينبغي أن توصف فقط من وجهة تركيبها الداخلي والمعنى المحدد لها بل ينبغي أن ينظر إليها كذلك من جهة الفعل التام الإنجاز المؤدي إلى إنتاج تلك العبارة"⁸. وهنا يمكن لنا أن نقف على رؤية "فان ديك" للتداولية على أنّها تُعابّر السيميائيات، فالتداولية تستقي مفاهيمها وإجراءاتها التحليلية من المنطق وفلسفة اللغة، ونظرية أفعال الكلام بوجه خاص.

إنّ رؤية الباحث للمستوى التداولي لا تتوقف عند حدود الوصف الاستعمالي للغة، بل إنّه يعمل على إنشاء القوانين التي تحكم البناء اللغوي/الكلامي، يعني ذلك أنّ التداولية تسهم وبشكل كبير في منظومة الاتفاق والتواضع التي يستنها أفراد الجماعة اللغوية؛ فتركيب العبارات لا يمكن أن يستجيب للقاعدة النحوية فقط بل وإلى المستوى التداولي أيضا إذ يجعل تركيبها يتواءم مع مقتضى الحال⁹.

3.4 اللغة في ظل الاستعمال:

تخضع اللغة في الفكر التداولي لمبدأ الاستعمال، فهو الذي يحدّد دلالة العبارات وحتىّ بنيتها الداخلية قد تتأثر بواقع الاستعمال الاجتماعي، وقد يذهب الأمر إلى أبعد من ذلك فالتنظير اللسانية التي يعمل "فان ديك" على توضيح ملامح اشتغالها، فالتنظير اللسانية عنده "تتمّ بأنساق اللغة الطبيعية أعني تراكيبها المتحققة أو الممكنة التحقق، وتطورها التاريخي وبمختلف أنشطتها الثقافية ووظيفتها الاجتماعية، وأسسها المعرفية"¹²، ثمّ إنّ هذه الأنساق في نظر "فان ديك" تنبني على قواعد متعارف عليها ضمينا من طرف الجماعة اللغوية الواحدة، كما أنّ هذه القواعد ذاتها هي التي تحدّد نوع السلوك اللغوي.

إنّ المعادل الإجرائي الذي يقابل مبدأ الاستعمال في اللغة الطبيعية هو النحو ذلك النظام الصوري الذي يحكم اللغة، ويرى "فان ديك" أنّه من الضروري تدعيم المستوى التحويلي والدلالي للصوريين بالمستوى الثالث هو مستوى أفعال الكلام (التداولية)، ذلك أنّ اللغة في حقيقتها ليست مجرد بنيات مجردة "فالعبرة المتلفظ بها ينبغي ألا توصف من وجهة تركيبها الداخلي والمعنى المحدد لها، بل ينبغي أن ينظر لها كذلك من جهة الفعل التام الإنجاز المؤدي إلى إنتاج تلك العبارة"¹⁰. هنا تصبح اللغة من مجرد بنية صورية تحمل دلالتها في ذاتها إلى بنية تواصلية تحدّد معانيها ومقاصدها انطلاقا من السياقات التي ترد فيها تحقيقا لغايات المتكلم.

4.4 أفعال الكلام عند فان ديك:

تتجلى أفعال الكلام في نظرية "فان ديك" ضمن مقارنته التداولية لتحليل الخطاب، حيث يربطها بالسياق الاجتماعي والمعرفي للمتحدثين، ويستند في ذلك إلى الأقوال والآراء التي قدمها كلٌّ من "أوستين" و"سيرل" في نظرية أفعال الكلام، إلا أننا نجد "فان ديك" يوسّعها من خلال دمجها في نموذج أشمل لفهم التواصل.

1.4.4 إنجازه الأفعال:

لم يخرج "فان ديك" في أفكاره حول نظرية أفعال الكلام عما جاء به واضع نظرية الأفعال الكلامية "أوستين" Austin، فنجد في الكثير من المواطن في كتابه "النص والسياق" يركّز على أهمية الفعل الإنجازي ويربطه بمفهوم الحدث. وهو بذلك يعطينا مفهوماً للفعل على أنّ "الفعل هو كلّ حدث حاصل بواسطة الكائن الإنساني... ومقتضى المفهوم الأساسي في تعريف معنى الحدث هو التغيّر"¹¹. هذا القول يركز على تعريف الفعل وماهيته، ويجمع بين الجوانب اللغوية والفلسفية لفهم معنى "الفعل" والحدث المرتبط به. إليك شرحاً مبسطاً:

1- الفعل كحدث: الفعل يُعرّف على أنه حدث أو عمل يحدث من خلال الكائن الإنساني (الإنسان). وهذا يعني

أن الفعل يتطلب وجود فاعل يقوم به، وهو هنا الإنسان الذي يُعدّ المحرك الأساسي للحدث.

2- التغير جوهر الفعل: العنصر الأساسي الذي يُعرّف الحدث هو التغير. بمعنى أن أي فعل ينطوي على تحول أو

انتقال من حالة إلى أخرى. على سبيل المثال، الكتابة هي فعل يتضمن تغييراً في حالة الورقة من فارغة إلى مليئة بالكلمات.

3- العلاقة بين الفعل والإنسان: الإنسان هو منبع الأفعال لأنه يمتلك الإرادة والقدرة على إحداث التغير، مما يجعل

أفعاله مرتبطة دائماً بنتائج أو تأثيرات محسوسة.

بالتالي، هذا التعريف يشير إلى أن جوهر الفعل هو الحركة أو التغير الذي يتم تحقيقه بواسطة الإنسان، ما يبرز

دوره كمحرك أساسي للأحداث.

فالأحداث عنده ترتبط بوسائل متفق عليها ممّا يوجد في اللغة من إمكان وصف الأحداث التي تتوقف على وظائف اتصال الأحوال في كلّ تفاعل مجتمعي، مفاد ذلك أنّه لكلّ حدث قائم حالة ابتدائية وحالة نهائية، مثال ذلك: الفعل (فتح الباب) حدثٌ واقعٌ تدريجياً في زمان متّصل، مستمر يقتضي حدثاً نهائياً وهو الفعل (غلق). إلا أنّ "فان ديك" يقصر مفهوم الأفعال الإنجازية على الفاعل الإنساني وذلك بالنظر إلى جملة من العوامل كمقصديّة الفاعل وحال جسده (حركة الذراع)، على غرار لو كان الحدث غير إنساني مثلاً فُتِحَ الباب بفعل هبوب الرياح. وهنا تداولية الخطاب تختلف جذرياً. فالأفعال تكون في العادة صادرة عن الكائنات الإنسانية أو بعض الحيوانات¹².

يناقش الباحث "فان ديك" قضية الفشل في تحقيق المراد من الفعل الكلامي وهنا يصبح الفعل لا إنجازياً،

فحصول الإنجاز متوقفٌ على تجسيد الغايات من الأفعال، وفي ذلك يقول "فان ديك": "إنّ حال إنجاز الفعل ينبغي أن

يقصد به علة مخصوصة لأثر طبق المراد¹³، مفاد ذلك أنه لو وقع الفعل وتحقق الغرض بفعل معينات الطبيعة الخارجيّة مثال ذلك: أن تقدم على فتح النافذة ولكن تفتحها الريح قبلك، هنا نقول بأن الغرض تحقق ولكن الإنجاز فشل.

ويمكن لنا في هذه النقطة أن نشير إلى ما قدّمه عندما ناقش حالات الإخفاق أو فشل الأفعال اللّغويّة، فالعمل القوليّ الذي لا يتم لا يعتبر قولاً خاطئاً، فالأمر هاهنا لا يتعلّق بحقيقة القول وإنما هو راجع لإتمام الفعل، وحسب وجهة نظر "أوستين" Austin فإنّ العمل هاهنا يكون خائباً إلاّ أنّه قد يحمل تأثيراً.

2.4.4 أنواع الأفعال:

من الملاحظ أنّ فان ديك ووفقاً لنظريته اللّسانيّة التّداوليّة قد تجاوز حدود التّقسيمات التي سنّها من قبله أوستين وسورل، إذ نراه يقسّم الأفعال حسب إنجازيّتها إلى أفعال بسيطة وأخرى مركّبة، ومتسلسلة، مفادها:

- **الأفعال البسيطة:** يُعرف الفعل البسيط على أنّه فعل إنجازيّ حال حصوله على أثر واحد مراد.
- **الأفعال المركّبة:** هي الأفعال المتسلسلة التي تدخل تحت مجال قصد كلّ واحد ممّا يُحقّقه حصول الفعل المركب في شموليته. والمقاصد الكلّية يمكن أن تسمّى خططا. مثال ذلك: بناء منزل هو فعل مركّب، يتكوّن من مجموعة من الأفعال يمكن أن يتحقّق إنجاز بعضها ويمكن له أن يفشل. ولكن في نهاية المطاف تجتمع هذه الأفعال لتحقيق مقصداً واحداً.
- **سلسلة الأفعال:** تختلف سلسلة الأفعال عن الفعل المركّب كون أنّ الفعل المركّب له خطاطة واحدة يسير وفقها ليحقق غرضاً/مقصداً كلياً واحداً، في حين لا تحتاج سلسلة الأفعال إلى وضع خطة معيّنة ولا نتيجة محدّدة، معنى ذلك بأنّه يجوز أن تكون الأفعال منفصلة مستقلاً بعضها عن بعض.
- **الأفعال المساعدة:** هو كلّ فعل تقصد نتيجته كشرط كافٍ لنجاح فعل رئيسيّ (أصليّ). يضرب هما "فان ديك" مثلاً فحواه أن يقوم بإنجاز الفعل المساعد أشخاص مساعدون، مثال:
- *- إشعال غليوني من أجل التدخين يكون فعلاً مساعداً، فالفعل المساعد هنا هو عندما يقوم شخص ما بعملية الإشعال في حين أكون أنا من يقوم بفعل التدخين.

- الإشعال = فعل مساعد ثانويّ

- التدخين = فعل ضروريّ أساسي¹⁴.

3.4.4 الأحوال الذهنيّة وإنجازيّة الأفعال:

لقد ذهب فان ديك إلى الرّبط بين الحالات الذهنيّة للأشخاص الفاعلين والأفعال الإنجازيّة، ففي نظره لا يمكن أن تقع التّصرّفات والأفعال وفقاً لمفاهيم التّصرفات المجرّدة التي تحيلنا إلى القيام بالأفعال ونتائج هذه الأفعال. يربط فان ديك الأفعال بالمفاهيم الذهنيّة مثل الوعي، والانتباه، والمعرفة، والإرادات والرّغبات، والمقاصد والأغراض، وهذه المفاهيم الذهنيّة قد غيّبها الاستعمال بسبب معرفتنا الضعيفة بحقيقتها وأثرها على الأفعال وتحقيقها.

انطلاقاً من هذه الفكرة يجعل فان ديك " كلّ غرض هو حالة ذهنية أتمثل فيها أمراً مراداً في المستقبل أو حدث ما"¹⁵، مفاد ذلك أنّ تجسيد الغرض في الواقع والذي يبدأ على شكل أفعال كلامية؛ يكون في بادئ الأمر على شكل تمثيلات لأحوال ذهنية أو أفكار منشأها العقل، يكون الهدف منها التركيز على تحقيق شيء معين أو وقوع حدث في المستقبل، ويمكننا أن نبرز ذلك في ثلاث نقاط:

1- الغرض يبدأ من العقل كفكرة أو قصد/نية.

2- يتصور الشخص أو يتخيل شيئاً يرغب في إنجازه أو تحقيقه.

3- يرتبط الغرض دائماً بما لم يتحقق كيانه في الوجود، سواء كان ذلك بتحقيق هدف معين أو توقع وقوع حدث ما.

يؤكد "فان ديك" أنّ أفعال الكلام ليست مجرد وحدات لغوية، بل هي أدوات للتحكم في المعرفة والتأثير على المتلقي، ويظهر ذلك بوضوح من خلال التمثيلات التي يستحضرها الباحث والتي يفهم من خلالها أنّ أفعال الكلام تُستخدم للإقناع والتلاعب بالرأي العام.

من خلال التداخل الحاصل بين أفعال الكلام والتمثيلات الذهنية يصرّح الباحث "فان ديك" على أنّ المتحدثين يبنون نماذج ذهنية للحوارات، ممّا يؤثر على اختيارهم لأفعال الكلام المناسبة لكلّ موقف. وهذا ما يُفسّر لنا كيف يمكن لنفس الفعل الكلامي (مثل الوعد أو التهديد) أن يحمل عدّة تأويلات بناء على السياق الذي يرد فيه.

4.4.4 السياق وأفعال الكلام:

يناقش "فان ديك" في هذا العنصر علاقة السياق بإنجازيّة الأفعال، ففي فلسفته يعتبر السياق مفهوماً محورياً لتحليل الخطاب. فأتناء مناقشتنا لعناصر السياق لا يستوجب الأمر ممّا الوقوف على الحثيات كالبنية الجسدية للمتخاطبين أو حال النباتات أو الحيوانات التي تتواجد أثناء دورة التخاطب، وعليه يكون السياق عبارة عن تجريد عالي الصورة المثالية مأخوذ من هذا الموقف، وهو يحتوي فقط على أحداث تعين على نحو مطّرد مناسبة العبارات المتواطئ عليها، من ثمّ يمكن أن تتجسّد هذه السياقات في:

1- أفعال كلام المشاركين في عمليّات التخاطب وتكوينهم الداخلي؛ معرفتهم المشتركة.

2- كما قد تكون الأفعال المنجزة ذاتها ببنياتها بالإضافة إلى زمكانية السياق¹⁶.

يسعى "فان ديك" من خلال آراءه أن يجعل السياق ذو بنية خاصة، فهو ليس مجرد خلفيّة أو مجموعة ظروف خارجيّة تحيط بالنص، إنّما السياق هو جملة من المكونات الاجتماعية والمعرفيّة التي تشكل الطّريقة التي ينتج وفقها الأفراد خطاباتهم ويفهمونها. وهنا ينطلق السياق في عمليّاته الديناميكية التي تركز على الموقف الاجتماعي، والأدوار الاجتماعية، والأهداف، والمعرفة المشتركة بين المتخاطبين.

يقدم لنا "فان ديك" من خلال أطروحاته نموذجاً للسياق، والذي يتبلور في التمثيل الذهني الذي يبنيه الأفراد أثناء عمليّات التخاطب، ويرتكز هذا النموذج على العناصر الآتية:

- 1- مكان وزمان التّخاطب أو التّفاعل.
- 2- المشاركون ووظائفهم وأحوالهم
- 3- مقاصد وأغراض التّخاطب
- 4- الخلفيات المعرفيّة المشتركة بين المتخاطبين: ثقافيّة، سياسيّة، اجتماعيّة. وهذه المعرفة تستوجب تحقيق ثلاث فئات وهي:

- معرفة العالم الذي تؤوّل فيه العبارة.
 - معرفة المقامات المتنوعة للسياق.
 - معرفة اللّغة المستعملة: ويقصد بها معرفة قواعدها في الاستعمالات الممكنة.¹⁷
- خلاصة القول أنّه لا يمكن لأيّ فعل كلاميّ تحليله بشكل منعزل عن السياق، وإنّما وجب وضعه ضمن السياق الاجتماعيّ والثّقافيّ الذي يؤثّر على تفسيره، والذي يسهم في تبيان حمولته الدلاليّة. لهذا نجد الباحث يركّز على كيفيّة تأثير المعتقدات والمعرفة الخلفيّة على إنتاجات المتخاطبين وتفسيراتهم لأفعال الكلام.
5. خاتمة:

في ختام هذه القراءة لكتاب "النص والسياق" لفان ديك، يمكن القول إن هذا العمل يمثل نقطة تحول محورية في فهم العلاقة بين النص والسياق ضمن الدراسات التداولية وتحليل الخطاب. ونحن وفقا لقراءتنا لهذا المؤلف توصلنا إلى النتائج التّاليّة:

- استطاع فان ديك أن يقدم إطاراً علمياً متماسكاً لتحليل النصوص من خلال التركيز على الأبعاد المعرفية والاجتماعية والثقافية التي تؤثر على إنتاج النصوص وفهمها.
- يكشف الكتاب عن أهمية السياق بوصفه عنصراً جوهرياً في بناء المعاني، مؤكداً أن النصوص لا تُقرأ ولا تُفهم بمعزل عن بيئاتها المتعددة. كما يعكس الكتاب عمقاً نظرياً ورؤية شمولية، إذ يجمع بين علم اللغة، علم النفس، والعلوم الاجتماعية لتحليل ديناميكيات النصوص والخطابات.
- إنّ كتاب فان ديك ليس مجرد إضافة إلى الدراسات التداولية، بل هو مرجع أساسي لفهم كيفية تكوين النصوص في سياقاتها المتعددة وكيفية تأثيرها على المتلقي. لذا، فإن العودة إلى هذا الكتاب تسهم في تعميق فهمنا لأبعاد الخطاب المعاصر في ظل التغيرات المجتمعية والثقافية.
- إن اللسانيات التداولية عند فان ديك تمثل إسهاماً مهماً في تطوير الدراسات اللسانية المعاصرة، حيث سعى إلى الربط بين اللغة والسياق الاجتماعي والتفاعل الخطابي. لقد ركز على تحليل المعاني التي تتجاوز البنية اللغوية المجردة إلى الأبعاد التداولية التي تُظهر العلاقة بين المتكلم، السامع، والسياق.

- من خلال تطبيقاته المتنوعة في تحليل الخطاب، مثل الخطاب السياسي والإعلامي، أظهر فان ديك أهمية التداولية في فهم القضايا الاجتماعية والثقافية والسياسية. كما وسّع آفاق البحث اللساني ليشمل الجوانب النفسية والمعرفية للغة، مما أضفى عمقاً جديداً لدراسة النصوص والخطابات.
- بهذا، تظل إسهامات فان ديك في اللسانيات التداولية مصدر إلهام للباحثين، مما يفتح أبواباً جديدة لاستكشاف الدور المعقد الذي تلعبه اللغة في تشكيل الواقع الاجتماعي.

5. الهوامش:

1. فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، مركز الإنماء القومي، المغرب، دط، دت، ص7.
2. فليب بلانشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر حباشة، دار الحوار للنشر، سوريا، ط01، 2007، ص17.
3. فرانسواز أرمينكو، المرجع السابق، ص8.
4. Philippe Blanchet, la pragmatique d'austin a Goffman, collection référence, éd : Bertrand- Lacoste, Paris, France, 1995, p9.
5. Voir : Dominique Maingueneau , l'analyse de discours, introduction au lecteur de l'archive, Hachette supérieur, Paris, France, 1991, P170.
6. Voir : J.Caron, Les régulation du discours, , ed (P.U.F), 1983, P69.
7. تون فان ديك، النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، تر: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، المغرب، دط، 2000، ص15.
8. المرجع نفسه، ص 17.
9. نفسه، ص17.
10. نفسه، ص18.
11. نفسه، ص228.
12. ينظر: نفسه، ص229-234.
13. ينظر: نفسه، ص 238.
14. المرجع نفسه، ص239-240.
15. نفسه، ص241.
16. نفسه، ص243.
17. المرجع نفسه، ص261-262.

6. قائمة المصادر والمراجع:

1. فرانسواز أرمينكو، المقاربة التّداوليّة، مركز الإنماء القومي، المغرب، دط، دت.
2. فليب بلانشيه، التّداوليّة من أوستين إلى غوفمان، تر: صابر حباشة، دار الحوار للنشر ، سوريا، ط01، 2007.
3. تون فان ديك، النّص والسّياق، استقصاء البحث في الخطاب الدّلالي والتّداولي، تر: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشّرق، المغرب، دط، 2000.
4. Dominique Maingueneau , l'analyse de discours, introduction au lecteur de l'archive, Hachette supérieur, Paris, France, 1991, P170.
5. J.Caron, Les régulation du discours, ed (P.U.F), 1983.